العُثْمَانِيّون...مِن تَقَاليد القَبيلَة إلى نِظَام الدَوْلَة

دراسَة تَحَليليّة في خُصوصيّات التَحَوّل والبِنَاءِ المؤسَّسي

م. د. طالب محيبس حسن الوائلي

كليّة التربية - جامعة واسط

شهدت مرحلة اضمحلال دولة سلاجقة الروم وتدهورها ظهور الإمارة العثمانية التركية في غربي الأناضول، وهي إمارة قدّر لها أن تصبح دولة مترامية الأطراف، وكانت الأطول بقاء من بين الإمارات التركية الأخرى، إذ عمّرت ٦٢٣ عاماً (١٢٩٩ـ ١٩٢٢)، لكن هذه الإمارة لم تهتم بكتابة تاريخ نشأتها المبكر، حتى تم فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣[١]، بسبب أنها بدأت واحدة من إمارات تركية كثيرة صغيرة الشأن، وانشغلت بالفتوحات والحروب طوال هذه المدة، الأمر الذي ألقى ضلالاً على نشأتها الأولى، فتعددت الروايات وكثرت الاجتهادات حول أصولها كان من بينها روايات أسطورية[٢]، وأخرى تأثرت بالنزعة القومية التركية المتعصبة العائدة للمؤرخ محمد فؤاد كوبريللي وزير خارجية تركيا في عهد مصطفى كمال، التي تضمنها كتابه "قيام الدولة العثمانية" حين ظهر بالفرنسية عام ١٩٣٥، وترجم للعربية سنة ١٩٦٥، إذ تضمن تحاملا صلفا على آراء واستنتاجات المؤرخ البريطاني جيبونز[٣] Herbert Gibbons وصلت حد التجريح[٤]، ودفاعا أعمى عن العثمانيين ضد كل ما يراه مساسا بهم[٥]، فالرواية الرسمية العثمانية ترى أن هذه الأسرة هربت مذعورة أمام تقدم جحافل المغول نحو أقاليم الدولة الإسلامية، فيما يشك عدد من المؤرخين بهذه الرواية ويرون أنها إحدى إمارات الثغور المسيحية التي تحولت إلى الإسلام، ومن هنا يأتي هذا البحث ليصب في هذا الجهد، إذ يتناول تأسيس الدولة العثمانية وتنظيمها المبكر وتوسعها، والذي أفضى إلى تحولها من إطارها القبيلي إلى الدولة المنظمة.

أولا. أوضاع العالم الإسلامي في القرن الثالث عشر الميلادي:

يمكن تقسيم تاريخ الوجود التركي في الأناضول إلى مرحلتين أساسيتين: مرحلة الهجرة إلى آسيا الصغرى، ومرحلة تكوين الإمارة التركية العثمانية أيام مؤسسها عثمان، فلقد شهدت هذه المنطقة منذ العصر العباسي هجرات تركية استقرت فيها وأسست العديد من الإمارات، وبغية توضيح الأجواء العامة التي نشأت فيها الإمارة العثمانية نحاول أولا أن نوضح باختصار ظروف الصراع الطويل بين القبائل الطورانية، فدفع العالم الإسلامي ثمنه، وانتهى بسقوط الخلافة العباسية في بغداد على يد المغول القادمين من أواسط آسيا عام ١٢٥٨، ثم تمكنوا من اجتياح قلب الأناضول، وانتهاء بالقضاء على الدولة السلجوقية المسلمة.

١. الوجود التركي في آسيا الصغرى خلال العهد السلجوقي:

شهدت الفترة الممتدة من القرن الثامن إلى القرن الثالث عشر، تدفق الكثير من العناصر إلى الأناضول، وخلال ذلك تراجع - تدريجياً - الوجود البيزنطي والتنظيم الهيليني نحو السواحل التي جاء منها، أما طلائع الترك الذين وفدوا إلى المنطقة عن طريق فارس، فكانوا أحد روافد الحركة السلجوقية العظمى، فترسخ الوجود التركي في الأناضول بظهور السلاجقة، الذين نزحوا من أقصى بلاد تركستان خلال القرنين الثامن والتاسع الميلاديين تحت ظروف قاهرة نحو إقليمي ما وراء النهر وخراسان[٦]، ثم اعتنقوا الإسلام هناك وانضووا تحت راية الخلافة، وسرعان ما أصبحوا عناصرً محلية بعد أن استقروا في كل مكان فتحته جيوشهم وفتحوا الطريق أمام الهجرة التركية[٧]، فبعد أن هاجروا إلى آسيا الصغرى واستقروا فيها، استطاعوا بسلسلة من الغارات التي قاموا بها، أن يحددوا المدن ذات المواقع الإستراتيجية المهمة في الأناضول، ثم أصبحوا نواة تجمعت حولهم عشائر أخرى قادمة من الشرق[٨].

وعلى الرغم من أن أسرة كومينين[٩](١٠٨١-١١٨٥) استطاعت في بداية القرن الثالث عشر أن تزحزح بعض التكتلات التركية المستوطنة في

شمالي الأناضول وغربيه بمساعدة الصليبيين، فإن الإمدادات البشرية القادمة من خراسان كان لها أثر في ترسيخ أقدامهم في هذه المناطق، فضلا عن الهجرات التي نتجت عن الزحف المغولي وأدت إلى زيادة كبيرة في أعداد الترك، فتمكنوا من العودة إلى الأماكن التي طردوا منها على مشارف المضائق وبحر إيجة[١٠].

يتفق المؤرخون أن التركمان والترك يجتمعون مع المغول و السلاجقة و التتار في الأرومة الطورانية[١١]، لذا فإن الترك الوافدين إلى الأناضول ينتمون إلى عناصر تركية مختلفة، فمنهم القارلوف، ومنهم القبجاق والقالاح، لكن الجمهرة الغالبة كانت من الأتراك الغز[١٢] أي التركمان الذين قدموا إلى الأناضول واجتمعوا بإخوة لهم من الغز حين صارت قبلة تقصدها العناصر التركية[١٣]. وبالنظر لتمرس الترك في مناطق الاستبس على صنوف القتال وضروراته ونظراً لأن السلاجقة كانوا في حرب ضروس ضد الإمبراطورية البيزنطية، فقد توافدت الهجرات التركية من أواسط آسيا إلى الأناضول، تدفعهم فكرة الجهاد كواحدة من الأسباب[١٤]، ثم أخذت تظهر في الأناضول إمارات تركية صغيرة إذا ما قورنت بجارها البيزنطي، كما فضلت بعض هذه المجموعات الاستقلال الذاتي منذ أوائل القرن الحادي عشر، واشتد ساعدها فواظبت على مهاجمة الأراضي البيزنطية، وتمكنوا من اجتياح مدن كبرى مثل بسيطية وقيصرية فضلا عن ايكونيوم (قونية فيما بعد)، ومن الدلائل على زيادة أعداد الترك، أنه حينما احتل العثمانيون منطقة نيقية وجدوا بها كثيراً من المسلمين الذين كانوا قد أقاموا فيها منذ ثلاثة أجيال[١٥]، كما قام المقاتلون الذين أفلتوا من السيطرة السلجوقية بقيادة توسع جديد صوب شواطئ بحري إيجة ومرمرة، وبازدياد توغلهم في الأناضول فرضوا الطابع الإسلامي التركي على المدن وبرزت بالتدريج ثقافة تداخلت فيها الثقافات التركية والعربية والفارسية. على أن تُرك الهجرات الأولى كانوا بسطاء في التفكير يميلون إلى التسامح مع الآخرين لا يشعرون على الإطلاق بالمزايا والالتزامات الخاصة بمجتمع منظم، ومن ثم فموقفهم ظل سلبيا من التغييرات السياسية التي كثيراً ما تعرضت لها الأناضول منذ قدومهم[١٦].

وفي أواخر النصف الأول من القرن الثالث عشر، ظهر داخل الأناضول عنصر جديد لم يكن غريباً من حيث الأصل عن الترك هو العنصر المغولي بعد أن تدفقوا انطلاقاً من أواسط أسيا برفقة العديد من القبائل التركية والتتارية نحو مناطق غربي آسيا وهضبة الأناضول، وتمكنوا من احتلال جميع المناطق في الطريق من الصين حتى آسيا الصغرى، واصطدموا بسلاجقة الروم وانتصروا عليهم في معركة كوشه داغ Kosedag أو الجبل الأقرع عام ١٢٤٣ بتوطين قبائلهم وجيوشهم في الأناضول(١٧)، ما أدى إلى الإمعان في تتريك المنطقة، لاسيما بعد توافد موجات جديدة من المهاجرين الترك، سواء أكان ذلك خوفاً من المغول أم مشياً في ركابهم(١٨)، باعتبار وحدة المغول والأتراك في الأرومة والأصل؛ إذ أنهم يجتمعون في الأصل التوراني أو الطوراني(١٩).

ويذكر المؤرخ الفرنسي ايرين بيلديسينو: أن التركمان الذين هربوا من المغول في هضبة الأناضول وخارجها وطردهم سكان المدن، احتشدوا على الحدود الغربية للدولة السلجوقية، بحثاً عن مناطق رعي جديدة لأغنامهم في التخوم الحدودية ، أما المراكز الحضرية البيزنطية القريبة فلم تسمح لهم سوى بتصريف منتجاتهم والحصول على حاجاتهم من المؤن، وأمر مثل هذا، كان يحدث في البداية بدون صدامات تذكر(٢٠).

٢. الخريطة السياسية لآسيا الصغرى قبيل ظهور العثمانيين:

فقدت الدولة السلجوقية بعد تفككها مناطق غربي الأناضول، وحينما بدأ الغزو الايلخاني انحصر الوجود السلجوقي في وسط الأناضول وقبلوا بسيادة المغول، ونشأت بدلا منها إمارات تركية مستقلة، أشهرها إمارة قرمان التي قامت غربي كيليكيا حين نزل القرمانيون في ليقاؤنية وإيسوريا، واتخذوا أرمناك عاصمة بعد أن فتحها علاء الدين كيقباد الأول(٢١)، ثم أبدلوها بقونية (عاصمة السلاجقة) التي استولوا عليها عام ١٢٧٧، وادعى حكامها وراثتهم الشرعية للسلاجقة وتبني تقاليدهم(٢٢)، وأصبحوا دولة قوية ظلت تناوئ العثمانيين لمدة قرن ونصف(٢٣).

كذلك كان الحال في إمارة أولاد كرميان الذين نافسوا قرمان وتمركزت حول ثغر فريجيا التركي - البيزنطي، واتخذت من كوتاهية التي حكمها السلاجقة منذ القرن الثاني عشر عاصمة، واضطرت الى عقد معاهدة مع السلاجقة إثر قيام بعض الصدامات بينهما، ويظن أن أنقرة وقعت في يدهم سنة ١٢٩٩، وأنهم اتجهوا بقوة إلى أراضي بيزنطة وأخذوا يوسعون حدودهم على حسابها[٢٤]، وحين جاء مير ميران (أمير أمراء) الإيلخانيين المشهور جوبان بك (ت١٣٢٧) على رأس جيش كبير ليستولي على الأناضول سنة ١٣١٤ مثل أمراء الأسرة الكرميانية وكبار رجالهم بين يديه وقدموا الهدايا وأعلنوا دخولهم في طاعته[٢٥]، كما أسهم تقسيم الممتلكات بين الأبناء على وفق التقاليد العشائرية وقوانين الإرث الإسلامية في إضعاف الإمارة وتدهورها[٢٦].

وهناك أيضاً إمارة منتشا الواقعة في أقصى الركن الجنوبي الغربي لآسيا الصغرى التي قامت على أصول بحرية، أي أن الذين سيطروا عليها جاءوا من البحر وكونوا جيوشهم بعد انحلال الأسطول البيزنطي عام ١٢٧٤، ثم توغلوا في نهر مندرس، واجتاحوا شواطئ بحر إيجة، بل فتحوا رودس وأخضعوها لحكمهم حتى أخرجهم منها فرسان القديس يوحنا سنة ١٣١٠، إذ وجدوا أنفسهم في مأزق صعب يهددهم بأعظم الأخطار مع جارتهم آيدين Aydin، التي ظلت تشيع القلق والاضطراب في بحر إيجة، إلى أن وفق أهل البندقية في عقد تحالف مع قبرص وفرسان القديس يوحنا ومن خلاله قضوا على سلطتهم وطردوهم من أزمير سنة ١٣٤٤[٢٧]، وباعتبار نشأة قبيلة المنتشا البحرية اندفع الترك من سواحل نيقية بزعامتها ومساعدة رواد البحر البيزنطيين ونفذوا عمليات قرصنة بحرية[٢٨]، وما لبثت أن انتقلت الزعامة إلى جارتها الشمالية آيدين التي استولت على المناطق المتاخمة لأزمير والسواحل المحيطة بها، وكانت تهاجم سواحل اليونان ويرجع رجالها محملين بالغنائم بعد توغلهم داخل اليونان وتراقيا ومقدونيا، وبذلك سبقت جارتها آيدين في الإغارة على الأراضي اليونانية[٢٩]. لقد استمرت كرميان في التوسع على حساب الدولة البيزنطية، وأخضعت الإمارات المجاورة مثل آيدين وصاروخان و قره سي لسلطتها وقوتها العسكرية الكبيرة[٣٠].

كانت إمارة آيدين تتدخل في شؤون الإمبراطورية البيزنطية مستغلة النزاعات الداخلية فتارة تحارب هذا الطرف وأخرى تحارب طرفا آخر من عناصرها المتحاربة، وكل ذلك يجري تبعا لمصالحها، وكانت ترسل الجيوش لغزو سواحل البلقان وانتزاعها من الصليبيين، حتى أن أميرها عمر بك توفي وهو يدافع عن أزمير ضد حملة سنة ١٣٤٤ الصليبية، وعمر بك هذا كان وسيط التعارف بين أورخان العثماني وكنتا كوزين الإمبراطور البيزنطي (١٣١٤-١٣٤٧)[٣١].

شاركت إمارة منتشا إمارة آيدين الحرب ضد الحملة الصليبية المذكورة، وكان لها نشاط حربي كبير استولت خلاله على رودس في القرن الرابع عشر[٣٢]. وكانت إمارة أولاد آتا في قره حصار مضطرة للاعتماد على الكرميانيين في المحافظة على وجودهم لذا دخلوا في طاعتهم، وفي بسيديا لم يجد أولاد حميد بدا من أن يعتمدوا على الكرميانيين أيضا خوفا من غارات القرمانيين[٣٣]. وعاشت إمارات آيدين ومنتشا وأبناء صاروخان وعاصمتها مغنيسيا وقره سي إلى الشمال من آيدين على الجهاد البحري في سهل طروادة على طرف الدردنيل، وفي جنوبي الأناضول قامت إمارة أخياليا وإمارة داخلية أخرى هي تكة، وفي سينوب قامت إمارة القرصان غازي جلبي، كما قامت إمارة أبناء جاندر في سينوب وقسطموني Kostomonu وإمارة جبني على حدود الإمبراطورية البيزنطية في طرابزون[٣٤] على البحر الأسود وإمارات أبناء حميد وتكة وأرتنا والقاضي برهان الدين وسط الأناضول، وإمارات أبناء رمضان وذي القدر شرقي الأناضول وجنوبيها[٣٥].

خريطة رقم ١
الإمارات السلجوقية في الأناضول
قبل قيام الدولة العثمانية

المصدر: إسماعيل ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي، ص ٣٠٢

وإلى جانب هذه الإمارات المسلمة برزت مملكتان مسيحيتان في طرابزون وكيليكيا (أرمينيا الصغرى) على الأطراف الشمالية الشرقية لشبه جزيرة الأناضول أوائل القرن الرابع عشر الميلادي[٣٦]، على حين احتفظ البيزنطيون بالركن الغربي لفيلادلفيا وبروسة[٣٧] ونيقية والمناطق المحيطة بهذه المدن الممتدة على طول الدردنيل والبسفور وبحر مرمرة[٣٨]. وهكذا فإن آسيا الصغرى كانت مقسمة بين هذه الإمارات الصغيرة المتصارعة أحيانا، دون ان تقوم فيها سلطة مركزية، ما دفع بعض القوى التركية إلى التفكير بالسيطرة عليها وتكوين دولة مركزية، وفي مقدمتهم العثمانيين الذين ظهرت إمارتهم بين كرميان وجاندر، ووجدوا بين رعايا هذه الإمارات عناصر لازمة لإدارة الدولة لاسيما من موظفي الدولتين السلجوقية والايلخانية ممن تمرسوا على الإدارة[٣٩]، وبهذا كانت الظروف متاحة للإمارة العثمانية للقيام والنهوض، في الوقت الذي كانت فيه قبائل تركية عديدة ما تزال تختصم على بقايا الخلافة العباسية التي أجهز عليها المغول منتصف القرن الثالث عشر، فنشأت هذه الدولة في الجزء الشمالي الغربي من آسيا الصغرى.

ثانيا. الإمارة العثمانية في مرحلة التأسيس (١٢٩٩-١٣٢٦):

يعد عثمان بن آرطغرل بن سليمان[٤٠] (١٢٩٩-١٣٢٦) المؤسس الحقيقي للدولة العثمانية، بالنظر للتطورات الخطيرة التي حصلت في عهده من بينها حصوله على رتبة أمير من السلطان السلجوقي علاء الدين سنة ١٢٩٩ عندما توفي والده آرطغرل وتمكنه من فتح قلعة قره حصار Karacahisar، والأهم تحقيقه الاستقلال الكامل عن السلاجقة بعد وفاة السلطان السلجوقي وما حققته الإمارة العثمانية في عهده من إنجازات توسعية على حساب الإمبراطورية البيزنطية، من هنا أخذت الدولة اسمها منه، وبغية التعرف على بدايات تكون الدولة العثمانية سيتم بدءاً دراسة أصل العثمانيين.

١. أصل الأسرة العثمانية وموطنها الأصلي:

تعددت الآراء واختلف المؤرخون في أصل العثمانيين؛ فيرى ابن خلدون أنهم من ولد كومر بن يافث أحد السبعة المذكورين من بني يافث في

التوراة[٤١]، ويأخذ البعض بما جاء في القصة العثمانية الرسمية التي تعزو إلى عثمان شجرة أنساب تضم ٢٥ ملفاً (أو أكثر) تنتهي عند نوح ﷺ، وتضم هذه الشجرة جوق ألب وولده أوغوز خان، أي أنها تتصل بأسطورة الأوغوز أو الغز[٤٢]، فيما يرى البعض الآخر انتماءهم إلى قبيلة قايي، لاسيما المؤرخ التركي محمد فؤاد كوبريللي[٤٣]، على أن انتماءهم إلى الغز لا يتناقض مع انتمائهم إلى قبيلة قايي المكتوب في مصادر أقدم من المصادر الغزيّة[٤٤]. وفي رسالة أرسلها تيمورلنك إلى السلطان بايزيد الاول (١٣٨٩-١٤٠٣) قبيل معركة أنقرة ١٤٠٢ تندر فيها على انحدار السلاطين العثمانيين من بدو التركمان[٤٥]. أما فيما يتعلق بموطنهم الأصلي فيذكر ابن خلدون أن:

"أول مواطنهم من الشرق على البحر بلاد الصين وما فوقها جنوباً إلى الهند وما تحتها شمالاً سد يأجوج و مأجوج"[٤٦].

أما المؤرخ البريطاني (ستانلي فشر Stanley Fisher) فيورد أن القبيلة هاجرت من آسيا الوسطى إلى إيران، وأقامت في ماهان في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي، واستوطنت منطقة خلاط، وعندما حدث زحف المغول تركت خلاط سنة ١٢٢١، وتحركت تحت قيادة سليمان وتوطنت في المنطقة الواقعة بين أرضروم وأذربيجان، ثم تركتها وتابعت التقدم إلى آماسيا في الأناضول، واستقرت و بدأت بتحسين أحوالها[٤٧].

وهناك رواية شفاهية مشهورة تمسك العثمانيون بها، تقول: أن سليمان أو كوندوز ألب (جد عثمان) أحد زعماء قبيلة قايي من فروع قبيلة الغز في خراسان، نزح أوائل القرن الثالث عشر بقبيلته إلى أذربيجان هربا من الغزو المغولي، وحكم مقاطعة ماهان شمال شرقي إيران، ثم اضطر إلى دخول الأناضول فارا أمام إحدى الهجمات المغولية، وحينما خفت هذه الهجمات قرر العودة إلى بلاده لكنه غرق في الفرات أثناء عبوره بالقرب من قلعة جعبر، ففضل ابنه آرطغرل أن يتجه بجزء من قبيلته غربا حيث قلب الأناضول، وطبقا لما تقوله الروايات الشفاهية فانه وعشيرته المكونة من مئة أسرة ضمت أربعمائة وأربعين فارساً وجد نفسه أمام معركة بين طرفين مجهولين سنة ١٢٣٢، فقرر خوض المعركة مؤازرا الأضعف، وبعد انتصاره وجد أن من

حالفه هو علاء الدين الأول سلطان قونية (١٢١٩-١٢٣٥) الذي كان يحارب فرقة بيزنطية أو مغولية من جيش أوكتاي خان، فكافأه السلطان ومنحه إقطاعا في شمال غرب آسيا الصغرى يضم مستنقعات سوكود والمنحدرات الشرقية من جبال طومانيج بين بورصة Bursa وأسكي شهر المقابلة للحدود البيزنطية[٤٨].

ويورد المؤرخ الفرنسي بيلديسينو هذه الرواية بصورة مختلفة قليلا عن سابقتها، فيقول: أن أرطغرل جاء إلى آسيا الصغرى مع أبيه سليمان وأخويه سنكر تيكين و جوندو غدو في زمن غير محدد وأقاموا فيها عدة سنوات، ثم قرروا العودة إلى بلدهم الأصلي فغرق سليمان شاه وهو يحاول اجتياز نهر الفرات، فواصل الأخوان طريقهم صوب تركستان، بينما بقي أرطغرل في الأناضول مع أسرته، ثم أوفد أرطغرل ابنه صارورياتي إلى السلطان علاء الدين، ملتمسا تخصيص أرض لذويه وأغنامه، فمنحه سيوط أو سوكود Sogut له ولذريته من بعده[٤٩]، كما منحه منطقتي طومانيج Domanic وإرميني طاغ أو فريجيا الشمالية Phrygia مرعيين صيفيين[٥٠]. لذا فالرواية بصورتيها تتفق على أن العثمانيين بدأوا بوصفهم إحدى أمارات الغزاة. ويؤيد هذه الرواية ما أوردته المصادر والمدونات البيزنطية من أن عثمان كان يتزعم منطقة تابعة لأمير قسطموني[٥١].

وبينما يورد المؤرخ التركي محمد فؤاد كوبريللي رأي جيبونز، وفحواه: أن القبيلة التي ينتمي إليها عثمان هي إحدى القبائل الفارة أمام غزو جنكيز خان وجاءت لتستقر في الأناضول[٥٢]. يعترض كوبريللي على قبوله لأنه ليس حقيقة، ولا يعقد عليه الإجماع، ويقرر:

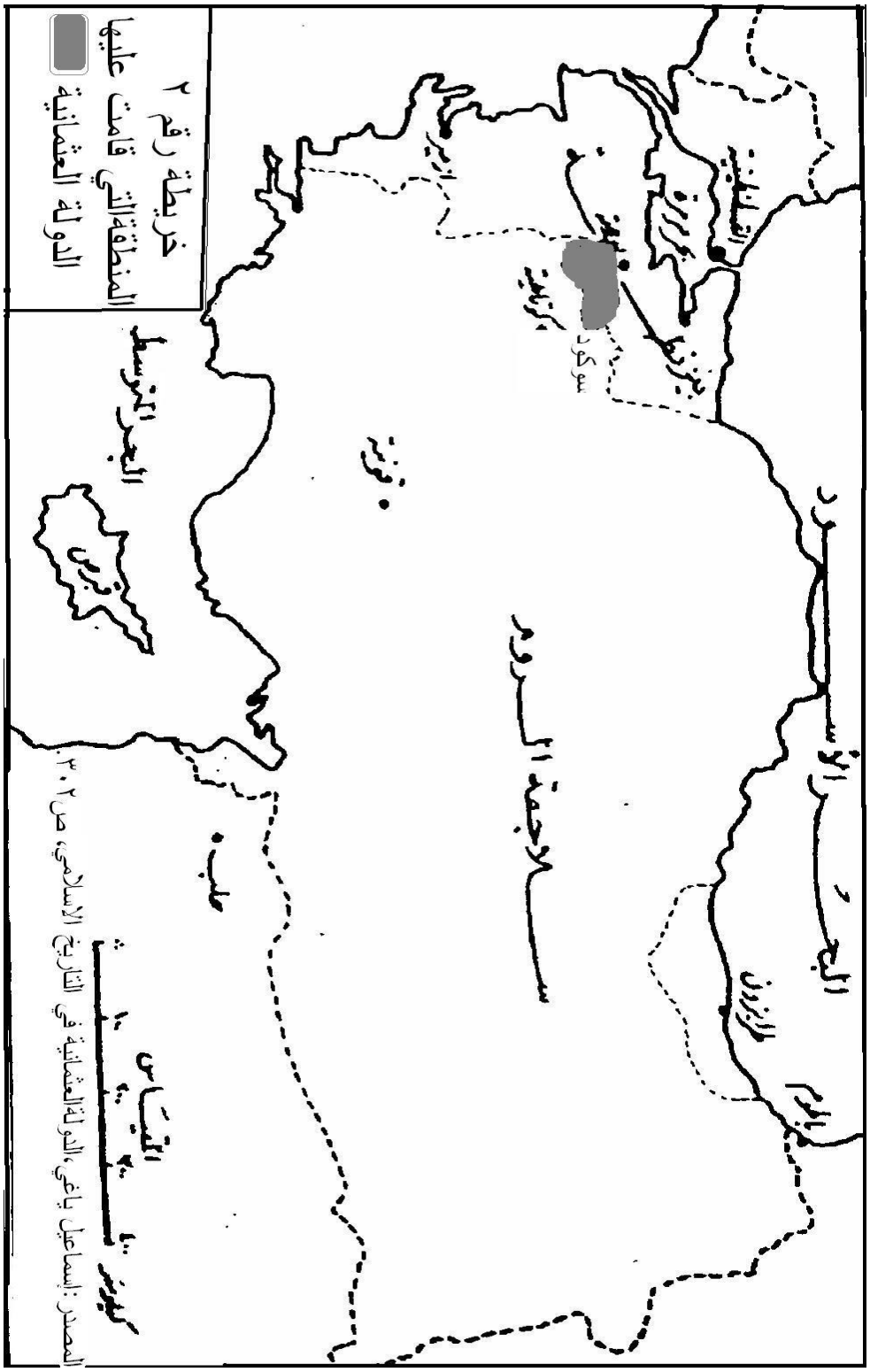

المصدر: إسماعيل ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي، ص ٣٠٢.

"أن المعلومات الخاصة بهذا الموضوع والواردة في كتب الحوليات العثمانية والتي ترجع إلى أواخر القرن الرابع عشر، غير جديرة بالثقة، وأن سبب عجز جيوبيتر لأنه ليس من أصحاب الدراسات التركية، كي يقدم هذه المصادر كما ينبغي"(٥٣).

على أن اعتراضه لم يقتصر على جيبونز حسب، بل أنه شكك بمجمل هذه الروايات، مدافعا عن أن هذه القبيلة وفدت إلى الأناضول مع الفتح السلجوقي، ثم علل الظروف التي لابست نشأة هذه الإمارة التركية، قائلا:

"أنه لمن الخطأ أن نعزو تأسيس الإمبراطورية العثمانية إلى قبيلة من أربعمائة أسرة(٥٤)، كانت تقطن في القرن الثالث عشر على الحدود البيزنطية السلجوقية في أقصى الشمال الغربي في الأناضول، دون أن نفكر - لشرح هذه الواقعة - في الظروف التاريخية و الاجتماعية للأناضول في القرن الثالث عشر والرابع عشر"(٥٥).

بل أن بعض المؤرخين شكك في أن أرطغرل وقومه كانوا مسلمين؛ فهناك نظرية تتلخص في: **"إن السكان الروم في حوض بحر مرمرة باعتناقهم الإسلام وانضمامهم إلى المسلمين قد أحيوا الإمبراطورية البيزنطية على هيئة دولة إسلامية"**(٥٦). كما يرى المؤرخ المصري أحمد عبد الرحيم مصطفى، أن انتساب العثمانيين إلى قبائل الأوغوز (الغز) وقصة زعيمهم من اختلاق المؤرخين، ويرى أن التناقض والاختلاف الآنف الذكر دليل على عدم صحة هذا النسب القبيلي أو الموطن، وبهذا فهو يحتمل أن يعود أصل العثمانيين لإحدى الأسر المسيحية التركية التي كانت خاضعة للإمبراطورية البيزنطية، ويستدل بتشابه طباع مقاتلي الثغور المسيحيين وأصولهم العرقية مع أندادهم من مقاتلي الثغور على الجانب الآخر (المسلمين) وأن العلاقات بينهما مستمرة لم تقتصر على الاحتكاك الحربي، وفي الوقت نفسه فهم يختلفون عن بني دينهم في الداخل، كما أن معتنقي المذاهب المسيحية المنشقة كانوا يواجهون الاضطهاد

على أيدي أتباع مذهب دولتهم الرسمي، لذا فهم يجدون في مناطق الثغور ملجأ آمنا[٥٧].

وربما يؤيده أن هؤلاء اعتنقوا الإسلام عندما دخل المنطقة بقوة لأسباب شتى، وأن القوات البيزنطية الحدودية (الأكريتاي Akritai) ونتيجة لوجود أرضية مشتركة بينهم وبين الغزاة المسلمين، بدأوا يميلون إلى الإسلام ويتعاونون مع الغزاة، ومن بينهم ميخال الغازي القائد العسكري البيزنطي الذي اعتنق الإسلام وتعاون مع العثمانيين وهو يعد نموذجا مشهورا[٥٨]، وبذا فهو يفترض ان مؤسسي الدولة العثمانية من هؤلاء المسيحيين المتحولين. وربما استند في ذلك إلى اجتهادات بروكلمان التي ترى: أن ابنه عثمان بن آرطغرل أول من اعتنق الإسلام بعد وصوله إلى آسيا الصغرى اعتمادا على آثار مادية هي الكتابات الموجودة على قبريهما[٥٩]. كما يمثل اتخاذ الأسرة اسم عثمان وليس أي من آبائه تأييدا لما ذهب إليه.

إلا أن بعض المؤرخين المعاصرين الذين اطلعوا على المصادر التاريخية الشرقية عن كثب يرون أن هذه النظرية تعتمد على فرضية لا أساس لها. ويعتقدون ضرورة البحث عن جذور هذه الدولة العثمانية في التطورات السياسية والديموغرافية للأناضول في القرنين الثالث عشر[٦٠]. والواقع إن هاتين النظريتين تمثلان رؤيتين متطرفتين، فالأولى وإن كانت منطقية لكنها بلا دليل حاسم، والأخرى تريد أن تنكر بمكابرة جهود العناصر المسيحية ودماؤها، سواء التي التحقت بالعثمانيين طوعا أو كرها كما سيتبين لاحقا، وهي بلا دليل أيضا.

وتأسيسا على ما تقدم، فإن الرواية الشفاهية آنفة الذكر لا يمكن أن تصمد أمام النقد التاريخي، لاسيما ما يتعلق بالمعركة وظروفها، فلا يمكن لقبيلة قليلة العدد - كانت هاربة أصلاً من هجوم كبير- أن تدخل في صراع جديد غير مضمون النتائج، كما لا يمكن الحديث عن تزامن وصول الغز الأتراك إلى آسيا الصغرى (حوالي عام ١٢٣٢)[٦١]، مع بداية غزوات مغولية لم تصل حين ذاك إلى الفرات أو آسيا الصغرى إلا بعد معركة كوشه داغ عام ١٢٤٣ بين سلاجقة

الروم والمغول، في وقت من المستبعد فيه استطاعة الجيوش البيزنطية المترنحة الدخول في معركة ضد السلاجقة.

بل أن تعدد الروايات واختلافها يفتح الباب أمام استنتاجات منطقية أخرى، فإذا كانت قبائل الغز التي قذف بها الطوفان المغولي نحو آسيا الصغرى قدمت من مناطق ما وراء النهر قبيل القرن الثالث عشر الميلادي وخلاله، وهي المناطق نفسها التي جاء أبناء عمومتهم من المغول والتتار منها. وإذا أخذنا ببعض ما جاء في الرواية الشفاهية، ما الذي يمنع أن يكون العثمانيون إحدى الكتائب التي سارت في ركاب المغول وحاربت معهم ثم استوطنوا الأناضول واعتنقوا الإسلام أسوة بالإيلخانيين الذين استقروا في العراق وأسلموا بعد ذلك[٦٢]، ومن ثم تحول العثمانيون إلى قوة عسكرية كبيرة حين استغلوا ظروف الفراغ السياسي في المنطقة، وإذا ما أخذنا ببعض ما جاء بإحدى صور الرواية الشفاهية، والتي تقول إن سنكر تيكين و جوندو غدو أخوي آرطغرل عادا إلى خراسان ودخلا في خدمة المغول، وما أكدته مدونات اكتشفت حديثا تعود الى القرن الثالث عشر تؤيد أن أسلاف العثمانيين دخلوا الأناضول منذ القرن الحادي عشر وليس هربا من المغول في القرن الثالث عشر عقب معركة منازكرد Manazikert أو ملاذكرد بالعربية التي حدثت بين السلاجقة والبيزنطيين سنة ١٠٧١ وانتهت لصالح السلاجقة وأسر الإمبراطور البيزنطي[٦٣].

والخلاصة فإن وجود الترك في الأناضول يرجع إلى ما قبل مرحلة مجيء قبيلة قايي، وأيا كان أصل العثمانيين أو دينهم أو موطنهم، فانهم انطلقوا من سوكود في تأسيس إمارتهم مستفيدين من رعاية سلاجقة الروم، وتوسعوا في أراضي الإمبراطورية البيزنطية المترنحة بوصفها (دار الحرب).

وعلى الرغم من ضعف أهمية مستنقعات سوكود الاقتصادية، فأن أهميتها السياسية والعسكرية كبيرة بسبب أن جغرافيتها طاردة فلا تساعد سكانها على الاستقرار وقيام الزراعة اقتباس وتدفعهم باستمرار لطلب رزقهم بطرق أخرى، وبالنظر لوقوعها على الحدود بين دولة السلاجقة في آسيا الصغرى والدولة البيزنطية اللتين كانتا في حروب ومناوشات لمدة طويلة، فيما لا تبعد سوكود

عن بحر مرمرة بأكثر من خمسين ميلا وعن القسطنطينية بأكثر من مئة ميل[٦٤]، لذا فإنها أفضل موقع للتوسع والغزو على حساب (دار الحرب)، واستهدف علاء الدين من تخصيصها لأرطغرل جعله وأتباعه جداراً عسكرياً أمام الخطر الصليبي[٦٥]. إذ درج الحكام السلاجقة على استراتيجية إسكان القبائل البدوية في التخوم بعيدا عن المدن دفعا لشرهم وتخريبهم[٦٦]. وكان السلاجقة غالبا ما يعينون رئيسا أو عددا من الرؤساء من بين رجالها، يلقب كل منهم بلقب رفيع هو (أوج أميري) أي أمير الحدود للدفاع عن السواحل[٦٧]، فإن هؤلاء الأمراء كانوا يضطرون من وقت لآخر إلى إتباع سياسات لا تتفق مع توجهات ومصالح دولتهم بغية معالجة الظروف الصعبة والمشكلات المتجددة التي تعترضهم[٦٨].

وكانت الأناضول خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر، منطقة صراع بين السلاجقة والبيزنطيين، وقد ساعد سوء الأوضاع الداخلية في بيزنطة السلاجقة ومكنهم من التدخل في شؤونهم، فأضحت القسطنطينية مسرحاً لحروب أهلية بين الطامعين بالعرش، فبلغ تردي الأوضاع أن تولى عرش الإمبراطورية على مدى ست وخمسين عاماً (١٠٢٥ - ١٠٨١) ثلاثة عشر إمبراطوراً[٦٩]. ويسجل المؤرخ البيزنطي المعاصر للأحداث باخيموس Pachymeres : **"إن سلالة باليولوغ الحاكمة التي استردت القسطنطينية عام ١٢٦١، كانت منشغلة بالأحداث في البلقان إلى درجة أهملت حدودها الآسيوية"**[٧٠]، ما فتح الطريق أمام التركمان لاحتلال مناطق مختلفة في التخوم الحدودية. ولما استوطنت الأسرة العثمانية في سوكود أيام أرطغرل، أخذت على عاتقها واجب الدفاع عن الحدود السلجوقية، ثم بدأوا منذ العام ١٢٨٠ بتوسيع رقعة إمارتهم بالاستيلاء على القرى والمناطق المجاورة من الأملاك النصرانية، مستغلين انشغال السلاجقة بصد هجمات المغول المتوالية.

حمل أرطغرل رتبة (بيك) ولقب (أوج بيك Uc Bey) أي محافظ الحدود، وبعد وفاته عام ١٢٩٩ تولى الإمارة بعده ابنه عثمان الذي ساعد والده على تأسيسها، فانتهج سياسة شبيهة بسياسة والده التوسعية، وفي العام نفسه منح

السلطان السلجوقي علاء الدين رتبة الإمارة لعثمان عندما استقبله في عاصمته قونية[٧١].

٢. العلاقات العثمانية السلجوقية والتوسع على حساب الإمارات المجاورة:

تحلّى عثمان بن أرطغرل المولود في سوكود سنة ١٢٥٨، بالجلد والمثابرة وضبط النفس والهيبة، وعلى الرغم من حماسته الدينية فقد اتصف بالتسامح، مستهدفا من تلك السياسة كسب المسيحيين، مما مكّنه من اجتذابهم للإسلام، و كانوا ركيزة قوية للدولة الناشئة، فبنى مسجدا في أسكيشهر Eskisehir، وعين الموظفين اللازمين لإقامة شعائر الإسلام وتطبيق الشريعة فوطد سلطته على أساس العدالة[٧٢]. وفي تقليد للسلاجقة قسم أهداف فتوحاته إلى ثلاثة عين على كل منها أوج بيك، أولها نيقوميديا Nicomedia أو (إزمت Izmit) والثانية نيقية Nicaea أو (ازنيق Iznik) والثالثة دوريالليوم Doryalaeum المعروفة بإسكي شهر، وحسب المؤرخ باخيموس: أن عثمان بادر سنة ١٣٠١ بمحاصرة نيقية العاصمة السابقة لبيزنطة، وحينما أرسل الإمبراطور جيشا تعداده ألفي مرتزق لمواجهته ألحق عثمان هزيمة منكرة به بعد أن كمن له بالقرب من بافيون Baphacon، فجعل هذا النصر منه شخصية مشهورة[٧٣]، وكمؤشر على هيبته لقب عثمان بالأسود تمجيداً له لأن للون الأسود احتراماً في الشرق[٧٤]، على أن صفاته الجسمانية كانت عاملاً مضافا لاحترامه بين قومه، تلك الصفات القوية التي ورثها عنه السلاطين لثلاثة قرون، إذ كانت الشجاعة صفة لهم، وكان جاداً جلداً صبوراً متحمساً للدين، متسامحاً مع العناصر الأخرى لاسيما المسيحيين[٧٥]، فحصل على المجد لنجاحاته المتميزة في إدارة إمارته وبسالته في ميدان القتال، ما أغرى الآخرين بالانضمام إليه.

بادر عثمان بعد أقل من عشر سنوات على وفاة أبيه إلى إعلان استقلال إمارته على أثر وفاة السلطان علاء الدين عام ١٣٠٧[٧٦]، لكن العثمانيين يعالجون هذه القضية بصورة أخرى فيذكر المؤرخ العثماني يازجي أوغلو

المعاصر للسلطان مراد الثاني (١٤٢١-١٤٥١) أن "أرطغرل اجتمع مع ابنه عثمان ببكوات الحدود السلاجقة، وتبادلوا الآراء بينهم، واستذكروا تقاليد الأوغوز، لذا اختاروا عثمان خانا عليهم"[٧٧].

بدأ عثمان يتطلع للتوسع نحو الغرب حيث القسطنطينية التي اتبع سياسة تعايش معها في البداية[٧٨]، معوضا ذلك بالتقدم عبر الممرات الضيقة والقاحلة ورنا ببصره جنوبا حيث السهول الخصبة في إسكي شهر وينيشهر، وبنى بجوارهما قلعتين لمحاصرتهما والسيطرة على المنطقة وإثارة رعب السكان البيزنطيين[٧٩]، فتمكن من فتحهما عام ١٣٠٨، ثم اتخذ مدينة ينيشهر Yenisehir عاصمة بدلا من سُوكود وأسماها قره حصار[٨٠]، وبذلك أصبحت أهم المدن اليونانية في غربي الأناضول وهي بورصة Bursa ونيقية على مرمى البصر[٨١].

لم يبادر عثمان في تعكير صفو المغول المنهمكين في القضاء على سلاجقة قونية في أقصى الشمال الغربي من آسيا الصغرى[٨٢]. ولما كانت دولة قرمان في عهده أقوى الدول التي قامت على أنقاض دولة السلاجقة، فإن الاصطدام بها كان محفوفاً بالمخاطر، لذا أرسى سياسته التوسعية نحو الغرب بعيداً عن الشرق حيث سلاجقة الروم والغزاة المغول[٨٣]، فكانت الأقاليم البيزنطية غنيمة سهلة بيده.

اتبع عثمان سياسة مختلفة في داخل الأناضول حين أعلن حمايته للأهالي من سطوة أبناء كرميان وتعديهم[٨٤]، فاشتهر في المدن والحواضر بتطبيق العدالة قبل الفتح. ثم أخذ يتحين الفرص للتوسع على حساب الإمارات التركية بهدوء، فانضم مثلا إلى جانب إمارة قره سي في نزاعهم ضد أبناء كرميان، وضم جزءا من أراضيهم، وحصل على جزء آخر عن طريق المصاهرة مع بعض أفراد الأسرة، ليتعامل ابنه أورخان مع بقية اقطاعاتهم بطريقة التيمار فضمها إلى الإقطاع العسكري، في وقت اتبع عثمان سياسة مختلفة لامتلاك أراضي إمارة أبناء حميد، إذ قام بشرائها بمبالغ كبيرة من كبار إقطاعييها[٨٥].

وإذا كان العثمانيون قد درجوا على وصف البيزنطيين بـ(دار الحرب)، فإن فقهاءهم ابتدعوا تبريرا دينيا لمحاربة الإمارات المسلمة حين أسموها (دار

البغي)، لأنهم بنظرهم (قطاع طرق) يطعنون دولة إسلامية في ظهرها وهي تجاهد الكفار، ورددوا عبارة أضحت مشهورة بين الترك نصها **"مانع غزاية غزا غزاي أكبردر"**، أي **"الجهاد ضد من يعرقل الجهاد"**[٨٦].

ومن موقعه الحصين في يني شهر أرسل الحملات ضد الدويلات اليونانية المجاورة، واستولى على الكثير من الحصون قبل أن تتحرك جيوش الدولة البيزنطية لمواجهته، لكنه تمكن من دحرها وخرب بثينيا Bithynia في حين لم يجرؤ اليونانيون على الخروج من أسوار نيقية، ثم تقدم بقواته صوب الساحل، مقلدا في ذلك ما كانت تقوم به أساطيل أمراء آيدين وصاروخان من غزو للجزر اليونانية، فبني بجوار كل من نيقية وبورصة قلعتين مكنتاه من ضرب الحصار عليهما، فمن القلعتين كانت الحقول تخرب ويتم الاستيلاء على المواشي والعبيد وتعرقل الاتصالات التجارية، وبالتدريج أدى تخريب المنطقة وعدم استقرار الأمن في الطرق إلى ارتفاع أسعار المؤن وهجرة السكان وانتشار المجاعة، وفي الوقت نفسه كان خيالة عثمان تخرب المناطق الممتدة إلى البسفور والبحر الأسود على حين كانت سفنه تقوم بالإغارة على السواحل فدب الرعب في قلوب سكان المنطقة كلها[٨٧].

واستمر بمحاصرة بورصة وما حولها من القلاع والحصون، نحو عشر سنوات[٨٨]، إلى أن فتحها سنة ١٣٢، فكان خطوة إيجابية حولت الإمارة العثمانية من إمارة حدود يسكنها الرعاة إلى دولة حقيقية ذات عاصمة وحدود وسكان مستقرين ووسائل تطوير جيش نظامي يدافع عنها ويوسع رقعتها وإدارة تشرف على شؤون الحكم[٨٩]. ومع مرور الوقت أضحت كلمة عثمانللي تأخذ صداها سواء على التخوم أو داخل المدن وازدادت أهمية الإمارة العثمانية أهمية بالتدريج حتى آلت إليهم السيادة على الإمارات الصغيرة التي تمزقت إليها إمبراطورية سلاجقة الروم، وظلت علاقتهم مع الإمبراطورية البيزنطية المتهالكة علاقة عداء يشوبها شيء من التسامح، فلم يهاجموا البسفور، لكنهم اتخذوا لأقدامهم موطناً في أوروبا على الدردنيل[٩٠].

ثالثا. تنظيم الدولة العثمانية ودخولها ساحة الصراع الدولي (١٣٢٦ـ١٣٦٠):

دخلت الدولة العثمانية ساحة الصراع الدولي منذ عام ١٣٢٦م بعد أن تمكن أورخان (١٣٢٦ـ١٣٥٩) من فتح بورصة البيزنطية نظرا لأهميتها الاستراتيجية عند العثمانيين، فبدأوا يقحمون أنفسهم في النزاعات العائلية التي كانت تندلع بين أفراد البيت الإمبراطوري في القسطنطينية حين بدأت طموحاتهم تكبر، وما كان لهذه الإنجازات أن تتم لو لم يقم العثمانيون بتنظيم الدولة وإرسائها على أسس رصينة بتصورات تلائم ظروف الدولة وتحدياتها، بعد أن وضع والده عثمان اللبنات الأولى للإمارة.

١. تنظيم أجهزة الإمارة في عهد أورخان بن عثمان:

شهد عهد أورخان أول استقرار إسلامي في أوروبا من جهة البلقان، كما شهد ظهور نظام عسكري أرعب أوروبا طيلة أربعة قرون، إلى جانب ظهور اتجاه عثماني نحو الاقتباس الحضاري من النظم الحضارية الأخرى، فأخذت نظم الضرائب البيزنطية تدخل في الإدارة العثمانية الناشئة وبعض فنون البناء والهندسة، كذلك نما الاقتباس من الآداب الفارسية والعربية وظهر نتاج أدبي تركي له قيمة[٩١].

ففي المجال العقائدي طبق العثمانيون منذ عهد أورخان مبادئ التسامح الديني الكامل، فلم يحاولوا فرض الإسلام على رعاياهم غير المسلمين، بل لجأوا إلى حل فكري وسط تمثل في عقيدة صوفية تتضمن تعاليم إسلامية متأثرة بالمسيحية، فقد ورثوا مجتمعا يتكون من عنصرين: رومي نصراني، وتركماني مسلم، استلزم اتخاذ عقيدة وسطية تجمع بين الإسلام ومبادئ المسيح من جهة، وبين الإسلام التقليدي والتصوف السائد من جهة أخرى، بغية جمع هذه العناصر وكسبها، فكان من حظ الطريقة البكتاشية[٩٢] أن قامت بهذه المهمة.

فالبكتاشية تضمنت العنصر الإسلامي الذي أمد الأمة الجديدة بمثل روحية صوفية بسيطة ومتعارف عليها، مع ميل للزهد دون ارتباط ظاهر بمذهب فقهي

أو كلامي محدد[٩٣]، فاتبعتها جموع الفلاحين والطبقات الشعبية وأفراد الجيش. يقول المؤرخ التركي خليل إينالجيك: لقد حلت في التخوم ثقافة دينية شعبية شاعت فيها الهرطقة الدينية والطرق الصوفية والأدب الملحمي والقانون العرفي، محل الحضارة والقيم المدنية في المناطق الداخلية حيث تسود المذاهب الرسمية وعلم الكلام المدرسي وأدب البلاط المكتوب بصنعة وتفنن وأحكام الشريعة، فضلا عن شيوع اللغة التركية في هذه التخوم[٩٤].

تولى عدد من الفقهاء والدراويش والمتصوفة في التخوم والحواضر الحدودية الدعوة إلى تقوية الإسلام وتحويل تقاليد الآخية Ahi أو الفتوة الأناضولية القديمة إلى إطار جهادي يحض عليه الإسلام[٩٥]، ومثل وجود التكايا في تلك التخوم القصية دليلا على محاولات التوفيق بين مثل الفتوة الإسلامية والتقاليد الغزية التركمانية، وفي وقت انهمك فيه بعض دراويش الطريقة المولوية (أتباع جلال الدين الرومي) هناك بمقاومة الاتجاهات الصوفية الأخرى لمبررات طائفية عن طريق التغلغل والنفوذ داخل بيوت حكام الأمارات التركية[٩٦].

لم يأل عثمان وولده أورخان من بعده جهدا في البحث عن تبرير ديني لسلطتهما الدنيوية فلم يكتفيا بلقب "بيك"، بل حاولا تحويل المشيخة العشائرية إلى سلطان ديني يحكم باسم الله، ليتخلصا ربما من دين علاء الدين الكبير حين أقطعهم سوكود فأرادوا أن يحكموا بتفويض الله وليس بتفويض السلطان السلجوقي، وأن سوكود والأراضي التي فتحوها ملكا لله والسلطان هو صاحب المسؤولية في المحافظة عليها وإدارتها وتنظيمها، من ثم لا ينتزعها منه سوى الله، أي أن السلطان "ظل الله على الأرض" على غرار "نظرية الحق الإلهي" التي حكم على وفقها ملوك أوربا، وبهذا فهو الحائز الوحيد لهذه الأراضي وعوائدها. كما ابتدعوا قصة علاقة عثمان بالشيخ أده بالي والرؤيا التي رآها وهي تمثل بشرى له، لقد حمل أورخان ألقاب "سلطان الفاتحين" و "سلطان الفاتحين والمجاهدين" و "الفاتح ابن الفاتح" و "الغازي ابن الغازي"[٩٧]. وفوض أخاه علاء الدين الوزارة التي صارت تسمى (الصدر الأعظم) في وقت لاحق[٩٨]، وهو المنصب الذي يلي السلطان، ووزع الواجبات بينه وبين ابنيه

سليمان ومراد، وهناك قضاة العسكر، إذ يعد قره خليل جاندرلي[٩٩]، قاضي العسكر في بيله جك أشهر قضاة العسكر في عهد أورخان وأكثرهم حنكة وتدبيرا، وتنحصر واجبات قضاة العسكر بتطبيق الشريعة الإسلامية في الأراضي الخاضعة للعثمانيين[١٠٠]، لذا فهم إلى جانب المفتي أهم الشخصيات الدينية.

بذل علاء الدين جهودا كبيرة في ثلاثة جوانب هي: سك عملة فضية تشبه تلك المتداولة عند السلاجقة وذلك سنة ١٣٢٨ نقشت على أحد وجوهها الشهادتان وعلى الثاني اسم أورخان وعبارة "خلد الله ملكه"، والثانية تنسيق ملابس رجال الدولة والجند وحدد وظائفهم، والثالثة تنظيم الجيش وطرق التجنيد وتقسيم الفرق[١٠١]. كما بادر عام ١٣٤٠ ببناء مركز تجاري في بورصة يضم سوقين أحدهما للسلع الثمينة، وقد زار ابن بطوطة المدينة عام ١٣٣٣ ووصفها بأنها: "مدينة كبيرة ذات اسواق جميلة وشوارع واسعة"[١٠٢].

وعلى طريق دمج ممتلكات البيزنطيين في دولته فكر أورخان بإيجاد تمييز آخر بين المسلم والمسيحي غير التمييز الديني، بغية اجتذاب الطبقات العليا من المسيحيين إلى الإسلام لقاء مزايا معينة عن طريق توفير نظام للمكافئات مقابل الخدمة العسكرية. فالدولة العثمانية أخذت بالنظام الإقطاعي السلجوقي منذ تأسيسها لتوفير العيش لفئات مختلفة من المقاتلين بدلا من الإنفاق عليهم من خزينة الدولة[١٠٣]، يتلخص بمنح أولئك المقاتلين أراض يلزمون في مقابله بأداء الخدمة العسكرية حين يدعون إليها، فمقابل كل ثلاثة آلاف إلى خمسة آلاف أقجة يتم تجهيز مقاتل واحد، وعليهم تقع مهمة تجهيز أنفسهم وإعداد الخيول لهم ولأتباع فرسان سباهية أو بحارة لخدمة الأسطول يتناسب عددهم مع حجم الإقطاع وارده، وصرفت تلك الاقطاعات باسم (ديرلكات)[١٠٤] قسمت على ثلاث مراتب (تيمار، زعامت، خاصت)، فالتيمار Timar ترجمة فارسية لكلمة Pronoia وهو أصغر الاقطاعات ويدر دخلا سنويا بين ألفين وثلاثة آلاف أقجة، أما الزعامت Ziamet فتدر بين ثلاثة آلاف إلى مئة ألف أقجة يمنح عادة للقادة والزعماء وبعض شيوخ العشائر، وفي هذه الحالة قد يصل عدد أتباع صاحب زعامت إلى ثمانية عشر مقاتلا أو أكثر، وما

تجاوز مئة ألف أقجة سنويا يسمى خاصت Khaset يمنح للولاة وكبار رجال الدولة[١٠٥]، وعندما تشغر هذه الاقطاعات تقطع من جديد أو تضاف إلى إقطاعات أخرى، وكان الغرض من وضع هذه القاعدة تفكيك عرى الروابط العشائرية الموروثة وربط السكان بالأرض والدولة وتشجيعهم على الالتصاق بالدولة والولاء لها حين يتم تشجيع السباهية على القيام بمهامهم، لاحتمال تجريدهم من اقطاعاتهم في حالة تقاعسهم أو تخلفهم عن الخدمة، مقابل ضمان المالك وترقيته إذا كان ملتزما بواجباته[١٠٦].

لقد حقق الإقطاع الحربي للدولة فائدتين: فقد ساعد على التوسع في زراعة مساحات واسعة من الأرض من ناحية، وفي الوقت نفسه وفّر للدولة محاربين مجهزين في أوقات الحرب دون تحمل نفقاتهم، فتوضع الإقطاعيات العسكرية في ألوية وسناجق، لم يزد عددها أول الأمر على سنجقين، إلا أنها تكاثرت بعد ذلك؛ فبلغت مئتان وتسعين سنجقاً يحكمها بكاوات يعقد لهم لواؤها كما كانت العادة، فاللواء رمزاً للسلطة العسكرية العليا[١٠٧].

وفي الجانب العسكري ضم الجيش العثماني فرق مشاة غير نظامية (البيادة) تتكون من الترك أنفسهم، يقومون بالمناوشة وتلقي الصدمة الأولى قبل أن تشن القوات النظامية الهجوم، وتنقسم فرقة المشاة إلى وحدات أصغر من ١٠-١٠٠ شخص[١٠٨]، كما كانت توجد ست فرق من الخيالة (سباهية) وصل عددهم في البداية إلى ٢٤٠٠ سباهي يرأسهم (آلاي بيك Alay Beyi) ثم ازداد إلى درجة كبيرة[١٠٩].

وعمد قره خليل جاندرلي قاضي العسكر في بيله جك الذي كانت له خبرة واسعة في الأمور العسكرية إلى تقديم اقتراح لأورخان يقضي بأن يحتفظ بيت المال بخمس الغنائم التي يحصل عليها الجيش وأتاح هذا للدولة موارد ضخمة من المال، أمكن الإنفاق منها على الجيش والقتال[١١٠]. واعتمد نظام الأوقاف لدعم نشاط الآخية والصوفيين في المناطق المفتوحة حديثا[١١١].

وعلى إثر ازدياد قوة العثمانيين وبداية مرحلة الحرب الكبرى، أشار جاندرلي على الصدر الأعظم علاء الدين اللجوء إلى وسيلة جديدة تكفل لهم

زيادة أعدادهم وتوفر فئة خاصة شديدة الولاء للدولة، وهذه الوسيلة هي (الدوشرمة) وتقضي بجمع عدد معين من الأطفال من دار الكفر وأسرى الحرب الصغار، وإعدادهم للمهام الإدارية والقتالية وتأسيس جيش جديد Yeniceri بعد تحويلهم إلى الإسلام وفصلهم عن كل ما كان يذكرهم بجنسهم وأصلهم، وتربيتهم تربية إسلامية عثمانية بحيث لا يعرفون أباً إلا السلطان، ولا حرفة إلا الجهاد في سبيل الله، ولعدم وجود أقارب لهم بين الأهالي لا يخشى من تحزبهم معهم، ومنهم اشتقت الإنكشارية[١١٢]. ولما صار عنده منهم عدد ليس بقليل، سار جاندرلي بهم إلى الحاج بكتاش شيخ طريقة البكتاشية ليدعو لهم بالخير، فدعا لهم هذا الشيخ بالنصر على الأعداء وقال: ليكن اسمهم (يني شري) ويعني بالتركية الجيش الجديد ثم حرف بالعربية فصار إنكشاري[١١٣].

جعل قره خليل جاندرلي للإنكشارية شروطاً لم يسبق لها مثيلا، فقسمهم إلى وجاقات أحدها وجاق، والوجاق يقسم إلى أورطات، إحداها أورطة، ولكل أورطة عدد يعرف بهم، ولبعضها أسماء خاصة، ويختلف عدد الجند في كل أورطة حسب العصور من ١٠٠ إلى ٥٠٠، وأكبر ضباط الوجاق أو قائده الأكبر يسمى (آغا) وفي إمرته تسلسل عسكري، وفيما يلي بعض المناصب العسكرية وأسماؤها:

الآغا	قائد الوجاق، ويقابل اللواء في هذه الأيام
سكبات باشا	ينوب عن الآغا في الأستانة ويقابل القائم مقام
قولكخيا أوكخيا بك	نائب الآغا أو السكبات باشا
محضر آغا	ينوب عن الإنكشارية عند الصدر الأعظم
الأفندي	الكاتب

كانت الدوشرمة قد شُرعت على أساس أن الشريعة الإسلامية نصت على أن غير المسلمين من سكان دار الحرب هم وحدهم الذين يحل استرقاقهم، فضلاً

عن أن الشريعة خصصت للإمام خمس الغنائم والأسرى من غير المسلمين، فصاروا يمتلكون عددا كبيرا من الأسرى الأرقاء يتزايد عددهم باستمرار، وحين قل الوارد من المتطوعين، تراءى للسلاطين تحويل الصالحين من العبيد إلى جنود[١١٤]. فكوّن مجندو الدوشرمة الجزء الأكبر من المجموعة التي عرفت (قابى قولارى Kapkullar) ومعناها عبيد الباب أو الحرس السلطاني[١١٥]، وهؤلاء يقسمون إلى ثلاث مجموعات: الأولى يشتغل غلمانها في القصور السلطانية في بورصة (أدرنة) أو استنبول، وهؤلاء يتلقون نوعا خاصا من التدريب[١١٦]، أما المجموعة الثانية فقد كان أفرادها يعدون ليشغلوا الوظائف المدنية الكبرى في الدولة، وهؤلاء يتلقون أيضاً تعليماً عسكرياً ومدنياً خاصاً، وكان بعضهم وصل إلى منصب الصدارة العظمى، وكان عدد أفراد المجموعة الأولى والثانية ضئيلاً جداً بالنسبة للمجموعة الثالثة التي يعد أفرادها ليكونوا فرقة مشاة هي الجيش الانكشاري[١١٧].

ومع أن العثمانيين لم يجبروا المسيحيين على اعتناق الإسلام في البداية، فأنهم غالبا ما كانوا يلحقون أبناءهم بالإنكشارية، لأنهم يتقاضون أجوراً عالية، وينظمون تنظيماً جيداً، ويشكلون جماعة متماسكة غيورة أمدوا الدولة العثمانية الحديثة التكوين بقوة من الجنود المشاة المدربة، وكانوا ثروة لا تقدر بمال في عصر سادت فيه الراكبة (الخيالة) الخفيفة المرتزقة، وكان الهدف من هذا النظام معالجة الخلل الذي بدأ يتسرب إلى نظام الإقطاعات العسكرية، فعندما اتسعت رقعة الإمبراطورية ترك السلاطين للبكلربكوات مهمة توزيع الإقطاعات، فاستغلوا ذلك ومنحوها لأتباعهم وعبيدهم[١١٨].

ومن قوانين الإنكشارية الإخلاص في الانتماء إلى الحاج بكتاش من حيث الطريقة، مع القيام بفروض الإسلام والطاعة المطلقة لقادتهم وضباطهم أو من ينوب عنهم، وكذلك عدم جواز ابتعاد الأعضاء عن ثكناتهم، وعدم جواز تعاطي أفرادها عملاً غير الجندية، كما لا يجوز لهم أن يتزوجوا، وفيما لو عجز أحدهم عن العمل يحال إلى المعاش فضلاً عن أن الأحكام تنفذ عليهم بصورة خاصة[١١٩].

ويعترض مؤرخ تركي على تاريخ ميلاد الانكشارية، فيقولون أن لا دليل على حاجة أورخان إلى تحويل الشباب المسيحي للإسلام، وأن ذلك تم في عهد ابنه مراد على أساس وجود حوالي ألف اسم لهؤلاء في السجلات العثمانية في عهده[١٢٠]، والواقع إن عهد أورخان لم يكن سوى عهد تأسيس الانكشارية، وإن لقاءهم بالحاج بكتاش لابد أن يكون قد تم قبل ١٣٣٧، وهو تاريخ وفاته، فيما يبدأ عهد مراد الأول سنة١٣٥٩، أما السجلات ونظام **"الدفتر"** لم يبدأ العمل به سوى في عهد ولده بايزيد، كما تؤكد مصدر تركي آخر[١٢١].

٢. مرحلة التوسع العثماني نحو الأقاليم البيزنطية:

كانت الجبهة البلقانية المكونة من الدولة البيزنطية والصرب والبلغار وغيرهم تعاني هي من أزمة ثقة بين حكامها، ما يعني ضعف التنسيق بينهم لمواجهة الأخطار الخارجية، فضلا عن أن الدولة والمجتمع البيزنطيين وصلا إلى مستوى من التفكك والتدهور، فالمرتزقة الذين تعودوا الانضمام إلى جيوشها تحولوا إلى عنصر ضعف بعد أن عاثوا فسادا في الأقاليم التي دخلوها، وسط فقدان الكنيسة الشرقية لهيبتها وسطوتها بين أتباعها، الأمر الذي انتقل إلى سكان المدن البيزنطية بصورة يأس وقنوط فبدأوا يرنون بأبصارهم نحو الفاتح الجديد ملتمسين العدالة، بعد أن يئسوا من مساعدة القسطنطينية لهم حين اشتعلت الحرب الأهلية سنة ١٣٣٧ بين أندرونيك Andronicus الجد وحفيده أندرونيك الثالث (١٣٢٨-١٣٤١)، ثم اندلعت أخرى بين شخصيات غيرهما، فطلبت المعونة من أورخان[١٢٢] مقابل الحصول على قلاع أموال وأراضي كانت مهمة للتوسع العثماني.

كما أسهمت بعض الكوارث والأحداث الطارئة في التاريخ الأوربي في مساعدة العثمانيين على التوسع، منها وباء الطاعون (الموت الأسود) الذي ضرب إيطاليا منذ ١٣٤٧ وانتشر في أوربا فحصد أرواح الآلاف فضلا عن الرعب الذي انتشر هناك[١٢٣]، مما شغل دول البلقان عن التفكير في إرسال أي حملة لمواجهة الخطر العثماني. كما أسهمت الصراعات العسكرية التي نشبت بين أطراف البلقان في إشغالهم عن التصدي، وترك العثمانيين يعملون بهدوء، فقد شهدت المرحلة نزاعا عسكريا بين البندقية وجنوا سنة ١٣٥٠، استمر ست

سنوات بسبب شدة التنافس التجاري بينهما[١٢٤]، والطرفان قوتان مهمتان في أوربا كان يمكنها لو اتحدا ضد العثمانيين أن يجعلوا مهمتهم في البلقان في منتهى الصعوبة، هذا إلى جانب حادثة الزلزال التي سنأتي عليها.

كان أورخان قد استولى على بورصة في أيام أبيه الأخيرة، ولم يمض وقت طويل على توليه الحكم حتى تقدم صوب بحر مرمرة وهزم حملة بيزنطية ضخمة عام ١٣٢٨ حين فرّ قائدها الإمبراطور أندرونيكوس الثالث من أرض المعركة عائدا إلى القسطنطينية، لتتخلى بعد ذلك بيزنطة عن بذل جهود خاصة لتنظيم المقاومة العسكرية في الأناضول أو تعزيز حاميات ما تبقى لها من المدن هناك، وترتب على ذلك استيلاء أورخان على معظم شبه جزيرة نيقية سنة ١٣٣١ وعجل يسقوط قره سي وسواحل خليج نيقوميديا خلال السنوات ١٣٣٤و ١٣٣٦ على التوالي.

وباستيلاء أورخان على ما تبقى من الأراضي البيزنطية الواقعة شمال غربي الأناضول من دون صعوبة، صارت الإمارة العثمانية أقوى إمارات التركمان في المنطقة وتعزز مركزها زعيمة للجهاد ضد المسيحيين[١٢٥]، ثم أمضى أورخان بعد هذه الفتوحات عشرين عاما في تطوير النظم المدنية والعسكرية للدولة[١٢٦].

عزز أورخان مركزه بالتوسع في شواطئ بحر مرمرة، على حساب إمارتي عمر خان وقره سي، مستغلاً الخلافات بين أفراد الأسرتين الحاكمتين[١٢٧]، كما سيطر على الساحل الجنوبي لبحر مرمرة مما سهل عليه العبور إلى أوروبا حين تسنح الفرصة له، وبذلك أصبح في مواجهة جناق قلعة في غاليبولي أحد أحياء القسطنطينية، ولم يكن الفاصل سوى بحر مرمرة الضيق. و أتاح تدخل أورخان في النزاعات الناشئة بين قادة بيزنطة له التوسع في أراضيهم الأوروبية، فالحروب الأهلية المستمرة بين الأباطرة المتنازعين جعلت الإمبراطورية البيزنطية ظلا مجردا لماضيها القديم، وخلال السنوات العشرين التي تميزت بالسلام، جرى تفاهم ودي بين أورخان والإمبراطور كونتاكونيوس Cantacuzene (١٣٤١-١٣٩١)؛ إذ زوج الأخير ابنته ثيودورا Theodora من الأمير المسلم على الرغم من اختلاف العقيدة والسن، وأبدى

استعداده لعمل كل ما من شأنه إرضاء السلطان، ضمانا لمساعدته في صراعاته الداخلية[١٢٨].

فعندما كانت القسطنطينية تعاني من الضعف والانشقاق، أتيح لأورخان التدخل في شؤونها، وأضحى طرفاً في الصراع على السلطة بين الإمبراطور الصغير يوحنا باليولوغوس John VI Paleologuese وقائد جيشه كانتاكوزين، وعندما طلب يوحنا وأمه الملكة آن Ann of Savoy المساعدة من استيفان دوشان ملك الصرب والبلغار، وطلب كانتاكوزين بدوره المساعدة ضد الإمبراطور من إمارة آيدين التركية لكن تحطمها في أعقاب وفاة أميرها عمر بيك سنة ١٣٤٤، جعل كانتاكوزين يتحول نحو أورخان، فقبل التدخل مقابل زواجه من ابنته تيودورا فتم ذلك عام ١٣٤٥، وأرسل قوة عسكرية بين عامي ١٣٤٦ و ١٣٤٧ استطاعت تثبيت كانتاكوزين على العرش، على أن يكون هو في القسطنطينية ويكون الإمبراطور في سالونيك فأرغمت الإمبراطورة آن على القبول، وتمت المصاهرة بين الأسرتين[١٢٩].

أرسل أورخان ابنه سليمان إلى الشاطئ الأوروبي على رأس عشرة آلاف جندي، ليستولي على قلعة زمبة (Tzampe) فلم يتفرغ كانتا كوزينوس للتصدي للقوات العثمانية لأنه كان مشغولاً بصراعه مع صهره حنا باليولوغوس، وحينما هدد استيفان دوشان ملك الصرب والبلغار القسطنطينية عام ١٣٤٩، إذ كان يود احتلالها قبل أورخان، استنجد كانتاكوزين بأورخان، حينها وجه هذه الحملة نحو الأراضي البلغارية لصد غارة دوشان وعززها بعشرين جندي[١٣٠]، وحينما كرر الأخير تهديده سنة ١٣٥٣، اشترط أورخان الحصول على قلعة زمبة مقابل المساعدة، فاضطر هذا للقبول، كما باع كانتاكوزين بعض أملاك الكنيسة من أجل الحرب وصد الهجوم واسترجاع أملاكه من يوحنا باليولوغوس بفضل الثلاثين ألف جندي عثماني وأصبح الإمبراطور الوحيد، كما استغل سليمان بن أورخان زلزالاً خرب غاليبولي في ٢/١ آذار ١٣٥٤، وحين هجرها سكانها احتلها، فأصلح المدينة وبنى أسوارها وجعلها مستقرا لكل من لحق به من جنده من البر الآسيوي[١٣١]، أي أنها أصبحت قاعدة للعمليات الحربية في أوروبا منذئذ، ثم انتقل في العام نفسه إلى

فتح سالونيك، وتوجد رسالة كتبها مطرانها غريغوري بالاماس Palamas من أسره لدى العثمانيين، يرى فيها: **"أن تقدم المسلمين المضطرد شرقا وغربا دليل واضح على أن الله يساعدهم، وأن دينهم هو الدين الحق"**[١٣٢].

شعر سكان القسطنطينية بالخطر بعد أن أثارهم بطريركها ضد كانتاكوزين الذي طلب بدوره مساعدة الصرب ضد العثمانيين، وحينما رفضوا اضطر عام ١٣٥٨ للتنازل عن الحكم إلى يوحنا باليولوغوس، فاستغل أورخان الحدث ورفض إخلاء الأراضي البيزنطية التي **"وهبها الله لهم بكارثة الزلزال"**، على حد قوله[١٣٣]، فاضطر يوحنا إلى قبول الأمر الواقع، لا بل قبل بتزويج ابنته الصغيرة من ابن أورخان مع دفع فديته عند اختطافه إلى قونية[١٣٤]. وهكذا وضع أورخان أقداماً ثابتة في أوروبا، كما استطاع خلال هذه المرحلة تعزيز مكانته في الأناضول بانتزاع أنقرة من إمارة قرمان، وأفاد من خبرة سكانها الإدارية وتجاربهم وثقافتهم كما رفدوا إمارته بعناصر تركية جديدة كان بأمس الحاجة لهم في مرحلة بناء دولته الجديدة. وبهذا تمكن عثمان بن أرطغرل، وولده أورخان من بعده، من تنظيم الدولة وبناء مؤسساتها الإقطاعية، اعتماداً على التزاوج بين الموروثين الحضاريين البيزنطي والإسلامي، وقوانينهما وأنظمتهما.

خاتمة:

اتسم تنظيم الدولة الذي كان يقف خلفه الصدر الأعظم علاء الدين وقاضي العسكر قره خليل جاندرلي، بالعسكرية الصارمة، مع حرص على احتواء كل القوميات والاتجاهات الدينية والفكرية وضمها تحت جناح الدولة، ولم تتردد في السماح للأرستقراطية البيزنطية القديمة بالاحتفاظ بإقطاعيتها، مقابل تقديم المساعدة العسكرية والفرسان للدولة في حروبها المستمرة، فبدأ الناس بالالتفاف حول العثمانيين، بعد أن لمسوا عدالتهم ومثاليتهم المبكرة قياسا بظلم الدولة البيزنطية المفككة، وهذا الأمر مكن الدولة العثمانية من التوسع والانتشار خلال مدة قصيرة. كما اتبع أورخان منهجاً آخر للتقرب من القوى الإقليمية الأخرى، فبدأ التدخل في المشاكل الناشبة بين البيوت المالكة في هذه الدول، فضلا عن محاولته التصاهر مع مثل هذه القوى، ومن ثم انطلقت الإمارة بفضل كل هذا

التنظيم، للتوسع على حساب الإمارات المجاورة، فحققت في عهد أورخان أول موطئ قدم لها في أوروبا البلقانية. وإذا كانت الدولة العثمانية واجهت خلال مرحلة ما قبل أورخان تحديات وأخطار مصدرها القوى الكبيرة التي كانت تحيط بها، فإنها بدأت التوسع في عهده باتجاهين في وقت واحد في البلقان والأناضول، ونجحوا بالاتجاهين بسبب تدفق أعداد كبيرة من التركمان سواء البدو أو المدنيين منذ النصف الثاني من القرن الثالث عشر، وضعف الإمارات التركية الحدودية بعد تلقيها ضربات عديدة من البيزنطيين والمشاكل الداخلية.

اعتصر الأسى والألم قلب أورخان، حزنا على ولديه خليل الذي أسره الفوجيايين، وولي عهده وقائد جيشه سليمان الذي وافته المنية سنة ١٣٥٧ حين كان يلهو بصقوره في أحد المروج قرب بولير فكبا فرسه وسقط صريعا، وذلك بعد أن أحتل أزنيك و غاليبولي التي دفن فيها مخلفاً أمجادا على الأرض الأوروبية التي شهدت معاركه العسكرية، فظل لمدة قرن من الزمان الأمير العثماني الوحيد المدفون في البلقان الذي **"غدا قبره مدعاة للعثمانيين لتأدية حجيجهم إلى أوربا بسيوف منصورة فاتحة، وليس بين قبور الأبطال العثمانيين أجل شهرة وأكثر مزارا من قبره، فهو قيصر الدردنيل وحجر الأساس في بناء الإمبراطورية العثمانية في أوربا"**، على حد قول فون هاممر[١٣٥]. فظل أورخان عامين يهادن البيزنطيين ويفاوضهم لإطلاق سراح ابنه، فتم ذلك قبل أشهر فقط من وفاته سنة ١٣٥٩، بعد أن بلغ الثمانين من العمر[١٣٦]. وقد خلفه في العرش ابنه مراد الأول (١٣٥٩ـ١٣٨٩). وهكذا استطاعت الدولة العثمانية، خلال مدة وجيزة، أن تقطع شوطا كبيرا في تحويل قبيلتهم البدوية الصغيرة إلى دولة كبيرة في ساحة الصراع الدولي تحكمت لقرون عديدة في مقدرات العديد من الشعوب.

الهوامش:

(١) حاول يزجي أوغلو أو يزدي باشا أن يدون تاريخا للسلالة العثمانية، ربطهم فيها بالقبائل التركية في آسيا الوسطى، ويرى الباحث الفرنسي مانتران أن السبب معادلة الذكرى المزعجة لتيمورلنك التتاري الذي هزم جده بايزيد، فعد العثمانيين خلفاء شرعيين للسلاجقة دون دليل، وأهمل المكانة التاريخية لبقية الإمارات التركية. روبير مانتران، الإمبراطورية

العثمانية. دراسة تحليلية في نشأتها وتطورها وسقوطها، ترجمة: غانم الحفو، الموصل، ٢٠٠٧، ص٢٢.

(٢) يراجع للإطلاع على مجمل هذه الآراء:

Paul Wittek, The Rise of the Ottoman Empire, London, ١٩٦٥, PP. ٧-١٥.

(٣) Herbert Gibbons, The Foundation of the Ottoman Empire ١٣٠٠-١٤٠٣, London, ١٩٦٨, P. ٢١١.

(٤) ننقل هذا التقييم استنادا إلى: عبد العزيز محمد الشناوي، أوربا في مطلع العصور الحديثة، الجزء الأول، القاهرة، ١٩٦٩، ص٥٢٠.

(٥) محمد فؤاد كوبريللي، قيام الدولة العثمانية، ترجمة: أحمد السعيد سليمان، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٩٣، ص ٨-٢٥.

(٦) عبد المنعم محمد حسين، دولة السلاجقة، القاهرة، ١٩٧٥، ص١٧؛ أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٩٣، ص١١.

(٧) Claude Cahen, Ottoman Turkey, London, ١٩٦٨, P. ٢٤٨.

(٨) Stanley Lane Poole, Turkey, Beirute, ١٩٦٦, P.٢٣.

(٩) أسرة بيزنطية حكمت في الأناضول تولى بعض أفرادها عرش الإمبراطورية مابين ١٢٦١و ١٤٥٣، أولهم ميخائيل الثامن وآخرهم قسطنطين الحادي عشر الذي سقط صريعا وهو يدافع عن القسطنطينية أمام قوات السلطان محمد الفاتح. صالح محمد العابد، موجز التاريخ العثماني، محاضرات مطبوعة على الآلة الكاتبة، ص٧٤.

(١٠) كوپريللي، المصدر السابق، ص١٢.

(١١) محمود بن الحسين بن محمود الكاشغري، ديوان لغات الترك، الجزء الثاني، استانبول، ١٩١٤م، ص٣١.

(١٢) كانت هذه القبائل تسمى الأوغوز أو التغز غز ثم خففت الكلمة وصارت الغز. وهؤلاء هم من بدو الترك لذا فهم أتراك على وزن أعراب.

(١٣) زكريا كتابجي، الترك في مؤلفات الجاحظ ومكانتهم في التاريخ الإسلامي حتى القرن الثالث الهجري، بيروت، ١٩٧٢، ص ٢٧-٣٧.

(١٤) هاملتون جب وهارولد بوون، المجتمع الإسلامي والغرب، ترجمة: أحمد عبد الرحيم مصطفى، الجزء الأول، القاهرة، ١٩٧١، ص٦٣-٦٧.

(١٥) احمد عبد الرحيم مصطفى، المصدر السابق، ص ١٥.

(١٦) Cahen, Op. Cit, P. ٣٦٥; Edward Creasy, History of The Ottoman Turks, London, ١٨٧٨, P. ٤.

(١٧) كوبريللي، المصدر السابق، ص ١٢

(١٨) أحمد عبد الرحيم مصطفى، المصدر السابق، ص ٢٤.

(١٩) تعد أطروحة زكريا كتابجي التي قدمها إلى جامعة كراتشي بباكستان أفضل المصادر العربية التي ناقشت هذه الأصول. تراجع: زكريا كتابجي، المصدر السابق، ص٩-٤٤. يراجع كذلك: فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، الجزء الأول، بيروت، ١٩٨٠، ص٢٠؛ محمد أسد الله صفا، تيمورلنك، بيروت، ١٩٩٠، ص٦. وهذا الرأي أكده أيضا تيمورلنك في أكثر من مكان أوضحها رسالة واردة عند ابن عربشاه: شهاب الدين احمد بن عربشاه، عجائب المقدور في أخبار تيمور، كلكتا، ١٨٨٣، ص١٨٢-١٨٤

(٢٠) ايرين بيلديسينو، البدايات. عثمان و أورخان، "تاريخ الدولة العثمانية" (كتاب)، إشراف: روبير مانتران، ترجمة: ترجمة بشير السباعي، الجزء الأول، القاهرة، ١٩٩٣، ص ٢٢.

(٢١) كوبريللي، المصدر السابق، ص ٧١؛ كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: نبيه أمين فارس و منير البعلبكي، الطبعة الخامسة، بيروت، ١٩٦٨، ص٤٠٦.

(٢٢) سيطر القرمانيون على قونية مرتين، الأولى في بداية القرن الرابع عشر وطردوا منها على يد جوبان أمير الإيلخانيين عام ١٣١٥م، وفي المرة الثانية طردهم منها أبناء دميرداش حاكم الأناضول المغولي في سنة ١٣٢٠، وعندما فرّ هذا إلى مصر وضعف الحكم الإيلخاني، عظم شأن إمارة قرمان واتخذت قونية عاصمة. كوبريللي، المصدر السابق، ص ٧٢.

(٢٣) علي سلطان، تاريخ الدولة العثمانية، طرابلس، بلا تاريخ، ص١٣.

(٢٤) Wittek, Op. Cit., PP. ١٣-١٥.

(٢٥) كوبريللي، المصدر السابق، ص٧٣.

(٢٦) "The Cambridge History of Islam", Cambridge, ١٩٧٠, Vol. I, P. ٢٣١.

(٢٧) Wittek, Op. Cit., P. ١٤;

بروكلمان، المصدر السابق، ص٤٠٧.

(٢٨) Cahen, Op. Cit., P. ٣٠٣.

(٢٩) أحمد عبد الرحيم مصطفى، المصدر السابق، ص٢٥؛ سلطان، تاريخ الدولة العثمانية، ص١١.

(٣٠) Lane Poole, Op. Cit.,, P. ٣٢.

(٣١) كوبريللي، المصدر السابق، ص٧٣-٧٤.

(٣٢) Stanford Shaw, History of Ottoman Empire and modern Turkey, Cambridge, ١٩٧٦, Vol. I, P. ١٤.

(٣٣) كوبريللي، المصدر السابق، ص٧٣ – ٧٤.

(٣٤) طرابزون أو (ترابيزوند): منطقة تقع شمال شرقي الأناضول على ساحل البحر الأسود.

(٣٥) فريدون أمجن، "التاريخ السياسي للدولة العثمانية"، الدولة العثمانية - تاريخ وحضارة (كتاب)، إشراف وتقديم: أكمل الدين إحسان أوغلي، ترجمة: صالح سعداوي، المجلد الأول،

استانبول، ١٩٩٩، ص٧-٨؛ بروكلمان، المصدر السابق، ص ٤٠٦؛ أحمد عبد الرحيم مصطفى، المصدر السابق، ص٢٥

(٣٦) تراجع الخريطة رقم (١).

(٣٧) بورصة بالمصطلح العثماني.

(٣٨) Cahen, Op. Cit., P. ٢٦٠.

بلغ عدد هذه الإمارات ثلاث وخمسين. يراجع للإطلاع على إمارات الأناضول:

Gibbons, Op. Cit., P. ٢٧٧.

(٣٩) H.Inalcik, The Ottoman Empire. The Classical age ١٣٠٠-١٦٠٠, London, ١٩٧٣, P.٢٣.

(٤٠) تسميه المصادر التركية الحديثة كوندوز ألب. فريدون أمجن، المصدر السابق، ص٢.

(٤١) عبد الرحمن بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، الجزء الخامس، بيروت، ١٩٧١، ص٢.

(٤٢) يراجع للإطلاع على صورة هذه الشجرة: الكاشغري، المصدر السابق، ص٣١.

(٤٣) كوبريللي، المصدر السابق، ص١١٧.

(٤٤) إبراهيم بك حليم، تاريخ الدولة العثمانية العلية، بيروت، ١٩٨٨، ص٣١.

(٤٥) محمد أسد الله صفا، المصدر السابق، ص٣٥.

(٤٦) ابن خلدون، المصدر السابق، ج٥، ص٣.

(٤٧) Stanley Fisher, Ottoman Land Laws, London, ١٩١٩, P. ٢٣.

(٤٨) Creasy, Op. Cit., PP. ٢-٣; Wilbur W. White, The Process of change in the Ottoman Empire, Chicago, ١٩٣٧, P. ٦-٧;

حسين لبيب، تاريخ الأتراك العثمانيين، القاهرة، ١٩١٧، ص٣؛ محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٨٣، ص١١٥؛ محمد كمال الدسوقي، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، القاهرة، ١٩٨٦، ص١١؛ عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، القاهرة، بلا تاريخ، ص٣٣.

(٤٩) تراجع للإطلاع على حدود المنطقة: الخريطة رقم ٢.

(٥٠) ايرين بيلديسينو، المصدر السابق، ص ١٨.

(٥١) Inalcik, Op. Cit., P. ٢٦.

(٥٢) Gibbons, Op. Cit., P. ٢١١.

(٥٣) كوبريللي، المصدر السابق، ص٩.

(٥٤) نذكر فقط أن الرواية أعلاه تقول إن عدد الأسر مئة، تضم أربعمئة مقاتل.

(٥٥) المصدر نفسه، ص ١٠.

(٥٦) Gibbons, Op. Cit., P. ٢١٦

(٥٧) أحمد عبد الرحيم مصطفى، المصدر السابق، ص١٩-٢٠.

(٥٨) Inalcik, Op. Cit., P. ٢٨.

(٥٩) بروكلمان، المصدر السابق، ص ٤٠٥.
(٦٠) كوبريللي، المصدر السابق، ص ١٢٦؛
Wittek, Op. Cit., P. ٢٢.
(٦١) التاريخ الذي حدثت به المعركة المزعومة بين علاء الدين سلطان السلاجقة والقوى المغولية والتي تدخل فيها آرطغرل مع عشيرته إلى جانب السلاجقة .
(٦٢) مصطفى بدر، مغول إيران بين المسيحية والإسلام، القاهرة، بلا تاريخ، ص١٢-٣٤.
(٦٣) Shaw, Op. Cit., Vol. I, P. ١٦.
(٦٤) الدسوقي، المصدر السابق، ص١١.
(٦٥) يراجع: روبير مانتران، المصدر السابق، ص١٣؛ الشناوي، الدولة العثمانية...، ص ٣٤؛ علي سلطان، تاريخ العرب الحديث ١٥١٦ – ١٩١٨، طرابلس، بلا تاريخ، ص ١٥.
(٦٦) فريدون أمجن، المصدر السابق، ص٥.
(٦٧) كوبريللي، المصدر السابق، ص ١٢٤.
(٦٨) عبد العزيز سليمان نوار، التاريخ الحديث. الشعوب الإسلامية (الأتراك العثمانيون- الفرس - مسلمو الهند)، بيروت، ١٩٩١، ص ٣٠.
(٦٩) الدسوقي، المصدر السابق، ص١٣.
(٧٠) Quited in: Inalcik, Op. Cit., P. ٢٣.
(٧١) Lane Poole, Op. Cit., P. ٢٣.
(٧٢) بروكلمان، المصدر السابق، ص ٤٠٨.
(٧٣) Quited in: Inalcik, Op. Cit., P. ٢٥.
(٧٤) اتخذت بعض الطرق الصوفية السواد لباسا لها وشعار منها النوربخشية والصفوية، كما أن أبا مسلم الخراساني أمر بارتدائه وجعله شعارا للعباسيين. كامل الشيبي، الطريقة الصفويّة ورواسبها في العراق المعاصر. دراسة مزجية لأصول الشبك والنحل الصوفية في شمال العراق، بغداد، ١٩٦٧، ص١٤.
(٧٥) Lane Poole, Op. Cit., P. ٢٣.
(٧٦) تراجع مناقشة مستفيضة لتاريخ إعلان الاستقلال: علي خليل احمد، الدولة العثمانية في سنوات المحنة، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة بغداد، كلية الآداب، ٢٠٠٤، ص١٨.
(٧٧) Quited in: Inalcik, Op. Cit., PP. ٩٠-٩١.
(٧٨) إسماعيل أحمد ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، الرياض، ١٩٩٨، ص١٥.
(٧٩) سلطان، تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٩ .
(٨٠) بروكلمان، المصدر السابق، ص ٤٠٨ .
(٨١) Cahen, Op. Cit., P. ١٨٢.
(٨٢) بروكلمان، المصدر السابق، ص ٤٠٩؛ السيد الباز العريني، المغول، بيروت، ١٩٦٧، ص٣٠٤.

(٨٣) مصطفى، المصدر السابق، ص ٣٧ .

(٨٤) "The Cambridge History of Islam", Vol. I, P. ٢٣٤.

(٨٥) فريدون أمجن، المصدر السابق، ص١١. سيطر العثمانيون بالتدريج على عدد من الإمارات بالقوة، وإلى أن جاء تيمور إلى الأناضول سنة ١٤٠٢، لم يبق من هذه الإمارات من يقاوم العثمانيين سوى إمارة قرمان.

Gibbons, op. Cit., P. ٢٧٩.

(٨٦) فريدون أمجن، المصدر السابق، ص١١.

(٨٧) Inalcik, Op. Cit., P. ٢٥; Lane Poole, Op. Cit., P. ٢٣; Creasy, Op. Cit., PP. ١٦-١٧.

(٨٨) المحامي، المصدر السابق، ص١١.

(٨٩) Shaw, Op. Cit., PP. ٢٣;

حسين لبيب، المصدر السابق، ص١٣-١٤.

(٩٠) هـ. ج. ولز، معالم تاريخ الإنسانية والمسيحية والإسلام والعصور الوسطى وعصر النهضة، الطبعة الثالثة، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، المجلد الثالث، القاهرة، ١٩٧٢، ص٩٤٢.

(٩١) Lane Poole, Op. Cit., PP. ٢٣-٢٤;

كوبريللي، المصدر السابق، ص١٩١-١٩٢؛ نوار، المصدر السابق، ص ١٣.

(٩٢) تنتسب الطريقة البكتاشية إلى السيد محمد الرضوي المتصوف التركي المشهور بالحاج بكتاش الولي الذي ينتسب للإمام علي بن موسى الرضا، المولود في نيسابور، انتشرت طريقته في الأناضول والعراق وبلاد الشام، وتتهم فرقته بأنها من غلاة الشيعة، ويرأسها **"الشيخ الأعظم"**، وهو من ألقى بركاته على الجيش الانكشاري وأطلق عليه هذا الاسم أيام أورخان فارتبط بطريقته وأطلق على أفراده "أبناء الحاج بكتاش"، كما عيّن لكل كتيبة منهم شيخا بكتاشيا يسمى "بابا"، يقودهم أثناء الحرب، توفي نحو سنة ٧٣٨هـ/١٣٣٧-٨م.

John Kingsley Birge, The Bektashi Order of Dervishes, London, ١٩٣٧, PP. ٢٤-٣٢, ٧٤;

محمد معصوم التبريزي (ت١٣٤٤م)، طرائق الحقائق، الجزء الثاني، تهران، ١٩٦٢، ص١٥٤-١٥٥؛ عبد المنعم الحفني، موسوعة الفلسفة والفلاسفة، الجزء الأول، القاهرة، ١٩٩٩، ص٣٧٠؛

ar.wikipedia.org/wiki/حاجي_بكتاش-٣٥k;
www.kultur.gov.tr/AR/Yonlendir.aspx? .

(٩٣) كامل مصطفى الشيبي، الصلة بين التصوف والتشيّع، الجزء الثاني "النزعات الصوفية في التشيّع من بعد عصر الأئمة حتى سقوط الأسرة الصفويّة"، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٩٨٢، ص٣٣٩-٣٤٠.

(٩٤) Quited in: Inalcik, Op. Cit., P. ٢٧.

(٩٥) "The Cambridge History of Islam", Vol. I, P. ٢٣٣.

يراجع للإطلاع على تفاصيل عن هذه التشكيلات: تيشنر، مادة آخي، "دائرة المعارف الاسلامية"، ترجمة: إبراهيم زكي خورشيد وآخرون، القاهرة بلا تاريخ، المجلد الثاني، ص٤٥٥-٤٦٠.

(٩٦) Wittek, Op. Cit., PP. ٦٠-٦١.

(٩٧) يراجع للإطلاع على مناقشة لذلك: روبير مانتران، المصدر السابق، ص١٣-١٥.

(٩٨) علي خليل أحمد، المصدر السابق، ص٢٦.

(٩٩) عرف أولاً باسم خير الدين باشا. محمد فريد بك المحامي، المصدر السابق، ص٤٢؛ بابنكر، مادة أورخان، "دائرة المعارف الإسلامية"، م٥، ص١٩٣.

(١٠٠) بروكلمان، المصدر السابق، ص٤١٣؛ روبير مانتران، المصدر السابق، ص١٥.

(١٠١) الشناوي، أوربا...، ج١، ص٥٩٥.

(١٠٢) محمد بن عبد الله اللتواني الطنجي ابن بطوطة (ت١٣٧٧م)، رحلة ابن بطوطة أو تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، بولاق، ١٩٣٤، ص٢٠٦.

(١٠٣) Cahen, Op. Cit., P. ١٨٢;

إبراهيم علي طرخان، النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٦٨، ص٢٤-٢٥؛ كوبريللي، المصدر السابق، ص١٨٩-١٩٠؛ أحمد عبد الرحيم مصطفى، المصدر السابق، ص٣٩.

(١٠٤) وهي جمع (ديرلك) ومعناها رزق، وهي تدل أنها المورد المعاشي للمقطع.

(١٠٥) جب وبوون، المصدر السابق، ج١، ص٦٨-٧١؛ عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون، دمشق، ١٩٧٤، ص٤٥-٤٦؛ صالح العابد، المصدر السابق، ص١٢. هناك اختلاف بسيط بين أرقام المبالغ.

(١٠٦) أندري كلو، غازي الغزاة سليمان القانوني، ترجمة: محمد الرزقي، تونس، ١٩٩١، ص٣٢.

(١٠٧) Shaw, Op. Cit., P. ٧٠.

(١٠٨) Creasy, Op. Cit., P. ٤.

(١٠٩) Inalcik, Op. Cit., PP. ٢٧-٢٩.

(١١٠) بروكلمان، المصدر السابق، ص ٤١٤؛ الدسوقي، المصدر السابق، ص١٧.

(١١١) Shaw, Op. Cit., Vol. I, P٢٩.

(١١٢) Gibbons, Op. Cit., PP. ١١٧-١٢١; Lane Poole, Op. Cit., P. ٢٦-٣١.

(١١٣) المحامي، المصدر السابق، ص ٤٢.

(١١٤) أحمد عبد الرحيم مصطفى، المصدر السابق، ص١٣٢. يرى بعضهم أن الإمام لا يستحق خمس الغنيمة لأن الآية خصصت أبواب إنفاق الخمس، فقال تعالى:

﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل...﴾ الأنفال/٤١.

(١١٥) Creasy, Op. Cit., P. ١٦; Shaw, Op. Cit., P. ٢٦;

جب وبوون، المصدر السابق، ج١، ص١٠١-١٠٣.
(١١٦) عمر بن عبد العزيز عمر، دراسات في تاريخ العرب الحديث الشرق العربي من الفتح العثماني حتى نهاية القرن الثامن عشر، بيروت، بلا تاريخ، ص٤٨.
(١١٧) Shaw, Op. Cit, PP. ١١٣-١١٤;
الشناوي، أوربا...، ج١، ص٤٧٢-٤٧٣.
(١١٨) ولز، المصدر السابق، ص ٩٤٢ .
(١١٩) جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، الجزء الثالث والثلاثون، القاهرة، ١٩١٠، ص١٧٦-١٧٧.
(١٢٠) Inalcik, Op. Cit, P. ٢٧.
(١٢١) فريدون أمجن، المصدر السابق، م١، ص١٩.
(١٢٢) الشناوي، أوربا...، ج١، ص٥٦٨.
(١٢٣) هربرت فشر، تاريخ أوربا العصور الوسطى، القسم الثاني، ترجمة: محمد مصطفى زيادة وآخرون، الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٩٦٦، ص٣١٦-٣١٨.
(١٢٤) المصدر نفسه، ق٢، ص٤٢٥. هذه الحرب نتيجة لحربين اندلعت بينهما، الأولى دامت أربع عشرة سنة (١٢٥٧-١٢٧٠)، والثانية ثلاث سنوات (١٢٩٢-١٢٩٦).

(١٢٥) Creasy, Op. Cit., PP. ١٦-١٧;
حسين لبيب، المصدر السابق، ص١٣-١٤؛ احمد عبد الرحيم مصطفى، المصدر السابق، ص٤٥.
(١٢٦) احمد عبد الرحيم مصطفى، المصدر السابق، ص٤٦. سلطان، تاريخ الدولة العثمانية، ص٢٠.
(١٢٧) إبراهيم بك حليم، المصدر السابق، ص٣٣؛ سلطان، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٢٠.
(١٢٨) Shaw, Op. Cit., PP. ١٦-١٧.
(١٢٩) Ibid., P. ١٧; Inalcik, Op. Cit., PP. ٢١-٢٢.
(١٣٠) Wittek, Op. Cit., P. ٤١;
احمد عبد الرحيم مصطفى، المصدر السابق، ص ٤٧.
(١٣١) الدسوقي، المصدر السابق، ص ١٩؛ سلطان، تاريخ الدولة العثمانية، ص٢١ - ٢٢.
(١٣٢) Quitted In: Inalcik, Op. Cit., P. ٢٩.
(١٣٣) Quitted in: Shaw, Op. Cit., P. ١٧.
(١٣٤) Ibid., P. ١٧; Inalcik, Op. Cit., P. ٢١;
أندري كلو، المصدر السابق، ص٢٢-٢٣.
(١٣٥) نقلا عن: فشر، المصدر السابق، ق٢، ص٤٥٠-٤٥١.
(١٣٦) Inalcik, Op. Cit., P. ٣٢.

تختلف المصادر حول السنة التي توفي فيها أورخان بين الأعوام ١٣٥٧ و١٣٦٢. المصدر نفسه، ق٢، ص٤٥١؛ بروكلمان، المصدر السابق، ص٤١٦؛ مصطفى، المصدر السابق، ص٤٨؛ سلطان، تاريخ الدولة العثمانية، ص١٩.